أعلام المحاماة

في كتاب الأستاذ عبد الحليم الجندي

بقلم صاحب العزة الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك

« جرائم واغتيالات القرن العشرين » كتاب نفيس وضعه الأستاذ عبد الحليم الجندي في جزءين أخرجهما للناس في الشهر الماضي. وأبرز ما في الكتاب تصويره حياة ثلاثة من أعلام المحاماة. اختارهم المؤلف ضمن عظماء المحامين الذين تألق نجمهم في سماء المحاماة بمرافعاتهم في القضايا الكبرى في القرن العشرين وهم: الهلباوي في مصر، ومارشال هول في انجلترا، وهنري روبير في فرنسا. قرأت الكتاب قراءة تأمل وإمعان، فألفيته جديراً بأن يقرأه كل مواطن، وكل محام، وكل شاب يعتنق مبدأ الحرية الفردية والسياسية.

المؤلف أستاذ أديب. ومحام نابه. كان محامياً عن الأفراد وقتاً ما، وهو الآن محام عن الحكومة في مجلس الدولة. لازمته روح المحاماة، وكتب عنها بقلم المؤمن بها، المحب لها، فجاء كتابه قصة رائعة للمحاماة في أشخاص ثلاثة من أعلامها. مجد المحاماة تمجيداً صادراً عن عقيدة وخبرة إذ وصفها بأنها مهمة قبل أن تكون مهنة، وجعلها دعامة الحرية وسندها في ساحات القضاء. ولعمري إن هذا الوصف لهو أكبر مفخرة للمحاماة. وإن المحامي ليعتز بمهنته إذ يراها سبيل الدفاع عن الحرية وعن الحق. وفي ذلك يقول المؤلف: « سنرى في الصفحات التالية بطولة المحاماة وهي تخوض الغمرات في هذا السبيل. إنما هي الحرية غاية جيلنا من حياته. لا وسيلة لأغراضه ولا طب لأمراضه إلا بتدعيمها، وتعميمها والفسح من مداها، وما حرية الأمة إلا فيض من حريات بنيها واستقرار العدالة فيها. فإلى دعاة الحرية والعدالة هذه الصورة المصغرة لثلاثة من كبار المدافعين عن الحرية في ساحات العدالة ».

وفي الحق إن الحرية هي ركن أساسي من أركان المجتمع الإنساني الحديث بهذا الاسم. وإذا تقلص ظلها في بلد من البلدان نزلت الأمة إلى درك عميق من الذل والهوان. والحرية قد تحميها النظم والقوانين، وقد يكفلها الدستور، وتحميها الصحافة. ولكن خط الدفاع الأول والأخير لها هو القضاء والمحاماة. فالقضاء هو فيصل التفرقة بين الحق والباطل، بين الحرية والاستعباد. هو ملاذ المظلوم ممن يتحيفهم طغيان الأقوياء والحكام. والمحاماة هي لسان الحرية والحق المدوي في ساحات القضاء، والمناضل الذي لا يخشى في الحق لومة لائم؛ فالقضاء والمحاماة صنوان متلازمان. يتعاونان على أداء مهمة قدسية سامية وهي استخلاص الحق وكفالة الحرية.

عرض لنا المؤلف في الجزء الأول من كتابه صورة حية من الهلباوي المحامي، والهلباوي الرجل، والهلباوي الخطيب. فحلل شخصيته أدق تحليل، وتابعه منذ نشأته إلى أن انتظم في سلك المحاماة إلى أن ظهرت مواهبه فيها وذاعت شهرته في أرجاء البلاد مرافعاته في القضايا الهامة، وعدد أشهر القضايا التي ترافع فيها في مختلف العهود. وأبرز فضائله في المحاماة ونزاهته فيها إلى جانب عبقريته كمحام قدير، وأبان للقارئ كيف كان يحضر قضاياه، وكيف كان يهاجم ويدافع، وكيف كان يسترعي الانتظار في مرافعاته، وكيف كان يستهدف لغضب ذوي السلطان في أداء واجبه.

وعني على الأخص بالقضايا الوطنية التي ترافع فيها عن الحرية وحملاته الصادقة على خصومها ومضطهديها. وأفاض المؤلف في هذا الجانب من حياة الهلباوي، ولا غرو فهو الجانب الذي يضفي عليه هالة من المجد وخلود الذكر.

وأعجبني من المؤلف الأديب أنه استثنى من الإشادة بمواقفه مرافعته كمدع عام في قضية « دنشواي » فلم يدافع عن بطله فيها واقتصر على التماس « الظروف المخففة » له حتى عزا موقفه فيها إلى سوء الحظ. وفي الحق إن قبوله المرافعة عن الاتهام في هذه القضية كان سقطة كبيرة من المحامي الكبير؛ لم تنسها له الأمة طول حياته ولا يلومها منصف على ذلك بل هو دليل على تقدم الوعي الوطني فيها. لأن التساهل بإزاء أمثال هذه السقطات يغري بتكرارها.

صور لنا المؤلف حياة الهلباوي في كل نواحيها، صورها بلغة مختارة ممتازة، وفي الحق إن لأسلوبه وتعبيراته طابعاً أدبياً بليغاً، وفيه أناقة وفيه جاذبية، وفيه عمق في المعاني والأفكار